ومنها استعمالهم (مشبوه) للريب فيه ولم يرد في معجمات اللغة الا شبّه عليه الامر تشبيهاً اذا لُبّس عليه تلبيساً

ومنها ادخالهم اللام في جواب اذا كقولهم اذا اردنا ترتيب اقوالنا لما كنّى بضمة مجلدات واستعمال هذه اللام مع اذا اختراع عصري لم يسبق اليه

ومنها خطأهم في استعمال حروف الجرّ كما في نحو لو ذكرنا كذا لاتسع بنا المجال والصواب لاتسع علينا المجال او لاتسع به المجال

ومنها قولهم اذنوه ان يمنع والصواب اذنوا له فقد جاء في كتب اللغة اذن له في الشيء اذناً اباحه له

ومنها قولهم هذا رجل بكل معنى الكلمة وهو تعبير انجليزي والتعبير العربي هذا رجل كلّ رجل لانه اذا اريد الدلالة على ان الشيء بلغ الغاية فيما تنسبه به نعتّه بكل مضافة الى اسم ظاهر يماثله لفظاً ومعنىً فتقول هو العالم كل العالم او تقول فلان عالم جد عالم اي متناهٍ في العلم وما هذا الاسلوب الافرنجي فيظهر فساده في الالفاظ المشتركة كالجمال والعجوز وما اشبه

ومن ذلك قولهم مُضام والصواب مضيم لانه اسم مفعول من ضامهُ يضيمهُ اذا ظلمهُ وقهرهُ

ومنها قولهم استقتم الفرصة والمنقول في كتب اللغة اغتنم

ومن التراكيب المعتلة قولهم جعلهم ان يفعلوا ذلك والصواب جعلهم يفعلون ذلك

سعيد الخوري الشرتوني

سورية

في اواخر القرن السابع عشر

وقعت لنا رحلة لرجل انكليزي اسمهُ هنري مُندرل (Henry Maundrell, M.A.) جاء القدس من مدينة حلب في اوائل سنة ١٦٩٦ ليحضر عيد الفصح ووصف ما لقيهُ في طريقهِ من المشاق وحال السكان ومعايشهم حينئذٍ فاقتطفنا منها ما يأتي

قال كان في حلب اربعة عشر نفساً من ابناء جلدتي عزموا على زيارة القدس في عيد الفصح المقبل فرافقتهم وقمنا من حلب في السادس والعشرين من فبراير سنة ١٦٩٦ عند العصر وسرنا الى خان العسل لكي نرى هل نحن على تمام الاهبة لهذا السفر . وخان العسل غربي حلب على ساعة ونصف ساعة منها . والمسافر في هذه البلاد يضطر اما ان يبيت في خيمتهِ او في خان او على قارعة الطريق . والخان ساحة مربعة طولها ثلاثون يرداً او اربعون

حولها غرف فارغة ينزلها المسافرون ولا يدفعون الاَّ اجرة زهيدة جدًّا ولا بدَّ من ان يكون معهم طعامهم وشرابهم وسائر لوازمهم لان ليس في الخان شيء من ذلك

ثم عدَّد الاماكن التي مروا بها في اليوم التالي الى ان وصلوا الى سهول كفتين وهي اراضٍ خصيبة كثيرة الضياع تربتها حمراء خالية من الحجارة الى غربيها اكام صخرية قاحلة كأن الطبيعة انتزعت الصخور من تلك السهول والقتها على تلك الآكام . وكفتين نفسها قرية كبيرة يعتني اهلها بتربية الحمام . وابراج الحمام كثيرة عندهم وهو يعيش بالتقاط الذرة من السهول فلا يطعمونه شيئًا آخر . والارض بعد كفتين كثيرة الكرم والزيتون وبعدها وادٍ خصيب تحيط به الصخور الشاهقة على جانبيه ساروا فيه اربع ساعات فوصلوا الى بحيرة كبيرة وهي ضحاضح خاضوها بخيلهم وهم ذاهبون لكنهم وجدوها جافة وهم راجعون . وبعد ان ساروا ساعة من الزمن وصلوا الى اول خفر في الطريق حيث دفعوا رسوم الخفر . وقال ان الخفر وضع اولاً لاصلاح السبل فصار الآن واسطة لسلب الناس ولاسيما الافرنج

وفي اليوم الثالث وصلوا نهر العاصي ومروا على جسر (كبري) فيه ١٣ قنطرة والنهر هناك سريع الجري وعليه دواليب يديرها بجريه فترفع الماء . والماء عكر وسمكه رديء اكلوا منه فآذاهم كلهم وباتوا في خان كبير رحب فيه مضيفة لابناء السبيل يأكل فيها من يشاء منهم خبزاً ومرقًا وسمكاً مجاناً من وقف موقوف على هذا الخان . والى جانبه تكية للفقراء يقيمون فيها ما شاؤوا . قال ولما دخلنا هذا الخان وجدناه مملوءاً بالحجاج الذاهبين الى البيت الحرام لكنهم احتوونا على الرحب والسعة مع علمهم اننا لسنا منهم ولا وجهتنا مثل وجهتهم

وفي الثالث من شهر مارس هطلت عليهم امطار غزيرة افقدتهم رشدهم وبيناهم في سيرة شديدة لا يعلمون ما يصنعون رأوا قرية ومزاراً او مدفن شيخ فاسرعوا اليه لعلهم يجدوا فيه ملجأ يقيهم المطر فاذا الذين في ذلك المزار قبولهم لئلاَّ يخجلوهم لانهم من غلاة الشيعة وكان معهم رجل من الاتراك فقال لاولئك الغلاة ان جماعته يسبُّون ابا بكر وعُمَر فسمحوا لهم بإدخال امتعتهم الى المزار ثم سمحوا بدخولهم فقضوا الليل فيه والمطر لم ينقطع

وفي السابع من مارس وصلوا الى طرطوس فوجدوا فيها قلعة كبيرة وكانت لا تزال مسكونة ولها سوران من جهة البر بينهما خندق عميق وكانت المدينة تحيط بالقلعة من الجنوب والشرق ولها سور منيع وخندق يحيطان بها ولم يبقَ شيء من مبانيها غير الكنيسة وهي كبيرة طولها ١٣٠ قدماً وعرضها ٩٣ قدماً وارتفاعها واحد وستون قدماً وجدرانها وعمدها من حجر يشبه الرخام وكانت حينئذٍ مزريًا للوائي

ومروا امام جزيرة ارواد وشاهدوا كثيراً من الآثار القديمة منها حاجز من الحجر طوله نحو ٧٠٠ قدم وعرضه من اعلاه نحو تسعين قدماً وبعده ساحة مربعة طولها ٥٥ قدماً وعرضها كذلك منقورة في الصخر والصخر يحيط بها من ثلاث جهات وفي وسطها صخر مربع ارتفاعه تسع اقدام وطوله ١٦ قدماً وعليه قبة ارتفاعها نحو عشرين قدماً

ووصلوا مساء التاسع من مارس الى طرابلس ووجدوا فيها قنصل انكلترا واسمه فرنسيس هستنجس وتاجراً انكليزياً اسمه جون فشر وهو التاجر الانكليزي الوحيد في طرابلس فدعاهم المستر فشر في اليوم التالي الى وليمة اولها لهم على نهر ابي علي فوق طرابلس ورأوا هناك القناطر التي تسمى قناطر البرنس وهي لجر الماء الى طرابلس . وفي الحادي عشر من مارس مشوا امام الوالي ارسلان باشا بعد ان بعثوا اليه بالهدية على جاري العادة وفي الثاني عشر زاروا دير البلد وكان فيه اربعون راهباً من اليونان فاحسنوا ضيافتهم . وفي الثالث عشر زاروا الوالي ثانية وكان قد ضرب لهم موعداً للملك . ووصف الكاتب كيفية استقبال الوالي لهم وقال انه يقدم الى الزوار حلوى وشربات وآخر الكل طيب يطيبون به لحاهم وهو دليل على ان الزيارة انقضت وعليهم ان ينصرفوا

وفي الخامس عشر من مارس عزموا على مغادرة طرابلس ومواصلة السير فرأوا ان المكارين هربوا خوفاً من السخرة فاضطروا ان يفتشوا عن غيرهم ولم يخرجوا من طرابلس الا عصر ذلك النهار فوصلوا الى انطلون وهي قرية صغيرة تحت البلد وداروا حول رأس شاقق في اليوم التالي الى ان وصلوا الى البترون وكانت خراباً وساروا منها الى جبيل فرأوا فيها قلعة كبيرة فيها كنيسة مثل كنيسة طرطوس تماماً وعبروا نهر ابرهيم على جسر من قنطرة واحدة غاية في العلو والاتساع

وامطرت السماء مطراً غزيراً وهم هناك فرأوا ماء النهر احمر عكراً كالدم ومن ثم اعتقد الاقدمون انه يتمكر بدم تموز (ادونس) عشيق الزهرة الذي قتله خنزير بري في جبال لبنان . ومروا بجونية وعبروا نهر الكلب على جسر من بناء فخر الدين المعني وادركتهم زوبعة شديدة وهم هناك فمنعتهم من نقل الكتابات القديمة التي شاهدوها على صخور نهر الكلب ووصلوا الى نهر بيروت وقطعوه على جسر فيه ست قناطر ورأوا كنيسة مار جرجس وكانت قد جعلت جامعاً (١) ووصلوا بيروت مبللين بالمطر ونزلوا

(١) بقيت كنيسة الى سنة ١٦٦١ في زمن علي باشا الدفتردار . قال الامير حيدر في تاريخه (وفي هذه السنة اجرى علي باشا الدفتردار النظر على كنيسة القديس جرجس التي في خارج بيروت جهة الشمال نحو النهر واذ لم يقبل النصارى البتة امر ان تصير الكنيسة جامعاً وبنى لها مأذنة وسميت مقام الخضر)

في خان قرب البحر

ووصف الكاتب بيروت فقال انها لقبت يوليا السعيدة في عهد اغسطس قيصر ولكن لم يبقَ فيها شيءٌ من سعادتها غير موقعها فانها قائمة على شاطئ البحر في بقعة طيبة . والبلاد حولها كثيرة الخصب وماؤها زلال يأتيها من التلال المجاورة لها وله فيها عيون جميلة البناء ولا شيءٌ غير ذلك يحق لها ان تفتخر به الآن

وفي بيروت قصر الامير فخر الدين امير لبنان وهو من الدروز الذين يظن انهم من بقايا الصليبيين . ولم يشأ هذا الامير ان تكون ولايته مقصورة على لبنان فاضاف اليه كل بلاد الساحل الى عكاء فاوجس الباب العالي منه شرًّا وردّه الى جباله

ذهبنا لمشاهدة هذا القصر وهو الى الشمال الشرقي من المدينة فوجدنا امام بابه نسقية ونوقرةً من الرخام لم نرَ اجمل منها في بلاد الترك . والقصر دور مختلفة امسى اكثرها خرابًا ولعلها لم تكمل اصلاً وهناك اصطبلات للخيل وبيوت للاسود ونحوها من الوحوش مما لا مثيل له الاّ في قصور الملوك . واجمل ما رأينا هناك بستان كبير مربع مقسوم الى ست عشرة حديقة من شجر البرتقال . والاشجار كلها كبيرة ناضرة لم ترَ العين اجمل منها تكاد اغصانها تنكسر من كثرة حملها . وحول هذه الحدائق حواشٍ من الحجر فيها مجارٍ للمياه يروى بها البستان كلهُ ولو كان فيه بستاني انكليزي ما نظمهُ باحسن من تنظيمه لكن واسفاه فاننا لما رأيناهُ كان قد صار حظيرة للغنم والمعزى وزبلها فيه يطوعن الارض اكثر من ذراع . وفي الجانب الشرقي من هذا البستان عشيان عاليان الواحد فوق الآخر يوصل الى كل منهما باثنتي عشرة درجة وفوقهما اشجار البرتقال تظللهما وهما يوصلان الى مصيف بديع في الجهة الشمالية كان فخر الدين يجلس فيه في ساعات النهو فانهُ اراد ان يقلد ملوك ايطاليا الذين زار بلادهم وقد رأينا في بستان آخر نُصبًا للتماثيل وفي احدى زواياهُ برج عالٍ ارتفاعهُ ٦٠ قدمًا بناهُ مرقبًا واحكم بنيانه فان سمك جدرانه ١٢ قدمًا (١)

(١) يظهر لنا ان هذا البرج هو برج الكشاف عينه الذي بقي قائمًا في ساحة البرج او ساحة الدستور الى عهد غير بعيد ولم يهدم الاّ بمشقة كبيرة فقد جاء في تاريخ الامير حيدر في حوادث سنة ١٦٣٠ ان فخر الدين بنى في بيروت برج الكشاف والحوش ثم سار الى حوران وبنى قصر سلمد . وعليه فقصر فخر الدين كان قريبًا من برج الكشاف والمحل كان في ساحة البرج نفسها والحديقة والسراي

ولم يزل سور المدينة قائماً الى الجنوب منها وهو مبني من انقاض مبانيها القديمة . فترى فيه قطعاً من اعمدتها الرخامية ورأيت خارج السور كثيراً من اعمدة الغرانيت والارض المرصوفة بالفسيفساء وقطعاً من الرخام الصقيل والتماثيل القديمة ونحو ذلك من الآثار التي تدل على ما كان لهذه المدينة من العظمة . وعلى شاطىء البحر قلعة قديمة مخربة وآثار مرفإ قديم

وخرجنا من بيروت في التاسع عشر من شهر مارس ودخلنا سهلاً فسيحاً يمتد من البحر الى الجبل في اوله غابة الصنوبر التي زرعها الامير فخر الدين (١)

ووصلنا نهر الدامور وكان جسره مهدوماً وجاء بعض السكان ليساعدوهم على عبوره واخذوهم الى اعمق مكان فيه فادركوا غايتهم وتركوهم وصعدوا الى مخاضته وعبروا منها . ووصلوا بعد ساعتين الى نهر الاولي وعليه قنطرة كبيرة من الحجر قال الكاتب ولم ار احداً من الجغرافيين ذكر هذا النهر وبعد رجوعي ذكرته للبدراسطفان بطريرك الموارنة في قنوبين فقال لي ان اسمه الاولي وان منبعه قرب الباروك وهي قرية في لبنان . وقابلنا عند هذا النهر كثيرون من التجار الفرنسويين في صيداء فذهبوا بنا الى الخان الذي يقيمون فيه في المدينة هم وقنصلهم . وامام الخان مرفأ صغير لكنه مردوم ردمه الامير فخر الدين لمنع السفن التركية من الوصول الى المدينة ولذلك تضطر السفينة الآتية الى صيداء ان ترسو الى جانب جزيرة صخرية على نحو ميل من البر وقاية لها . وصيداء مزدحمة بالسكان الآن ولكنها صارت اصغر كثيراً مما كانت قبلاً ولم يبق لها شيء من عظمتها السالفة التي تدل عليها العمد الكثيرة المبعثرة في بساتينها . وعلى اكمة جنوبي المدينة قلعة قديمة يقال انها من عهد لويس التاسع ملك فرنسا وعلى مقربة من هذه القلعة قصر كان لفخر الدين وقد تركه قبل ان يتمه وهو الآن سراي الباشا

وتتصل فرنسا في صيداء هو قنصلها ايضاً في القدس وعليه ان يزور القدس في كل فصح لحماية الزهبان . وكنا نود ان يرافقه في هذه الزيارة وقد كتبنا اليه في ذلك من حلب لكي

(١) ان ذكر هذا السائح لصنوبر بيروت وتسميته اياه الى الامير فخر الدين وذلك سنة ١٦٤٦ بعد قتل الامير فخر الدين بنحو سبعين سنة فقط دليل قاطع على ان الامير فخر الدين هو الذي زرعه ولكن ذلك لا ينفي ان يكون قد زرعه في مكان غابة اخرى كانت هناك كما فعل ابرهيم باشا المصري حينما فتح سورية . والاشجار الكبيرة التي كنا نراها في هذه الحرجة سنة ١٨٦ وما بعدها عمرها نحو مئتي سنة . وقلعت اربعة صنوبر كبيرة في المصيطبة قرب المحرش سنة ١٨٦٠ فعُدّ جذوعها نحو ثمانين سنتيمتراً وقد عُدّ الآن كم كان عدد طبقاتها ولكن حلك الطبقة عادة مليمتران فيكون عمره نحو مئتي سنة

عظمي به فلجانا انهُ ينتظرنا الى ان نحضر ولكن الامطار عاقتنا وخاف ان نتأخر كثيراً فخرج من صيداء قبل وصولنا اليها بيوم واحد ووعد ان ينتظرنا قليلاً في عكاء . فنهضنا في الصباح وواصلنا السير . ثم وصف ما رأوهُ في الطريق الى ان وصلوا القدس ودخلوا من باب الخليل ولم يترجلوا ولا سلموا اسلحتهم كما يفعل كل الافرنج الذين يدخلون اورشليم لانهم دخلوا مع قنصل فرنسا ونزلوا في بيت القنصل وكانوا يبيتون هناك ويأكلون ويشربون في دير اللاتين كل مدة اقامتهم في القدس . وسنلخص بقية الرحلة في جزء تالٍ

ولم يذكر الكاتب من اين كان فخر الدين يأتي بالمال لبناء القصور والقلاع لكن المطّلع على تواريخ سورية في ذلك العصر يعلم انهُ كان يعتمد على املاكهِ وعلى ما يبتزهُ من السكان ورؤساء العشائر فقد جاء في تاريخ الامير حيدر ان مركباً فرنسوياً جاء عكاء سنة ١٠٣٢ هجرية ليوسق قطناً وكان فيهِ اربعون الف ريال ثمن القطن . وجاء فيهِ ايضاً ان الامير فخر الدين اوفى ولدهُ علياً الستة عشر الف الغرش من غلة حريرهِ واملاكهِ ليوفي الافرنج ما استدانهُ منهم وقصدها بذلك استجلاب التجار وعمار البلاد ولم يفعلا كما فعل يوسف باشا صيدا والي طرابلس قبيل ذلك فانهُ جاء مينا طرابلس مركبان فرنسويان فيهما ثمانون الف غرش لاجل مشترى البضائع فادعى انهما مركبا قرصان وضبط ما فيهما من البضائع والاموال واسك جميع من فيهما من التجار والدوتية وقتلهم جميعاً وباع المركبين بثلاثة آلاف غرش ومن حين حدوث هذه الفعلة لم يدخل مينا طرابلس من تجار الافرنج احد . وذكر المسيو ده لاروك في رحلتهِ سنة ١٦٨٨ ان الشيخ يونس الخازن كان ريع املاكهِ في السنة نحو مئة الف فرنك

وغرش تلك الايام بمثابة نصف ريال مصري او عشر الليرة الانكليزية فالثمانون الف غرش تساوي ثمانية الآف جنيه . والستة عشر الف الغرش التي باع الامير فخر الدين حريرهُ بها تعادل الفاً وستمائة ليرة انكليزية . فالبلاد كانت كثيرة الخيرات والاهالي كانوا يدأبون على الزراعة ولكن الظلم والجور كانا بالغين حدّاً يفوق التصور ولم تسترح البلاد قليلاً الاّ في زمن فخر الدين